

وينموها ، لكنهم لم يفعلوا . بل إن ولع المتأخرين منهم ، ومن جاراتهم من المحدثين ، بالتشقيق والتفريع ، وإسرافهم في العناية بالجزئيات ، وحرصهم على استيفاء القسمة العقلية ، حال دونهم ودون النظر المنهجى السليم ، وأفضى بهم ، في كثير من الأحيان إلى بعثرة الظاهرة الواحدة والحديث عنها في مواطن متفرقة ؛ فهم - على سبيل المثال - فصلوا بين ظرفي الجملة ، ومتعلقاتها ، وجعلوا لكل من الأجزاء الثلاثة مبحثا مستقلا ، فيما أسموه « علم المعاني » ، فهنا مبحث « أحوال المسند إليه » ، وذاك مبحث « أحوال المسند » ، وذلك مبحث « أحوال متعلقات الفعل » . وفي حديثهم عن الحالات المتقابلة التي تعرض لكل هذه الأجزاء أو لبعضها ، استجابة للدواعي وأغراض معينة لم يكتفوا بالحديث عن تلك التي تكمن وراءها أسرار حقيقية ، وتستمد وجودها من نماذج حية في التراث الأدبي ، وإنما خضعوا للاعتبارات المشار إليها سلفا أو لبعضها . يبلو ذلك بوضوح في حديثهم عن حالة الذكر التي تعيننا هنا ، سواء للمسند إليه أم للمسند ؛ فلو تأملنا الأمثلة التي ساقوها في ذكر المسند إليه ، لأدركنا أن بعضها لا يحقق الغرض بمجرد الذكر ، بل بتكرار الذكر ، ومؤدى ذلك أن هذه الأمثلة ونظائرها جديرة بأن تعالج ضمن أسلوب التكرار ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، وأيات عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معدٍّ إذا قُبِّبَ بأبطحها بُنيينا
بأننا المنعمون إذا قُدرنا وأنا المهلكون إذا أُتينا
وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

= لما فيه من الحجة والبيان ، وقد حققه الأستاذ عبدالقادر أحمد عطا ، ونشره في عام ١٩٧٧ (دار الاعتصام) بعنوان آخر ، رأى أنه أدل على موضوعه ، وهو « أسرار التكرار في القرآن » ، ومما قاله الكرمانى في مقدمته أنه يذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو إبدال حرف مكان حرف ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان ، وبين السبب في تكرارها ، والداعى إلى استخدام ذلك فيها دون الآية الأخرى ، وهل كان في ما هذه السورة يصلح مكان ما في السورة التي تشاكلها .. غير أن ما قدمه الكرمانى فعلا في ذلك الكتاب لا يعدو أن يكون لمحات سريعة ، فضلا عن أنه لا يعالج الموضوع في أغلب الأحيان بالرؤية الفنية التي تنشدها .